حقائق في

الموقف العربي

د. اسماعيل صبري عبدالله

من بين التوصيات الرئيسية التى اتخذها المؤتمر القومى العام فى دورته الرابعة ، تلك التوصية التى ترسم الخط العام لحركة التنظيم السياسى فى المجال العربى ، فقد جاء فى هذه التوصية ان:

« **ان المؤتمر اذ يقدر الخطوات التى اتخذت وتتخذ على المستوى العربى ، فانه يوصى باستمرار العمل — وايا كانت الصعوبات — بتجميع القوى العربية ولحشد امكانيات الامة العربية كلها، لكى تكون فى المعركة ، ومساندة المقاومة الفلسطينية مساندة كاملة ، مع بذل الجهود لدعم وحدتها ولتأمين حركتها** » .

والواقع أن كل جهد يبذل لوضع هذه التوصية موضع التنفيذ يقتضينا أن نلقى الضوء على حقائق أساسية فى الموقف العربى .

فلقد حفل جو السياسة العربية طوال الشهر الماضى بضجيج شديد ، اختلطت فيه الاصوات وتضاربت الاراء وتصاعدت المهاترات حتى بلغ الصدام احيانا حد اراقة الدماء ، بين بعض فصائل المقاومة وكثرت المزايدات فى سوق « السياسة » الحزبية وكان موضوعها المفضل مرة أخرى فلسطين وشعب فلسطين ، ولقد أعاد هذا كله الى الاذهان صورا من الماضى كنا نظن أنها اندثرت نهائيا تحت انقاض هزيمة يونية سنة ١٩٦٧ ، نعم لقد عادت الى الاذهان صور من عهد حرب الكلام ، لقد اتسمت تصرفاتنا حتى حرب ١٩٦٧ دائما بطابع « رد الفعل » ازاء تصرفات العدو وحلفائه ، ولم تتخذ قط طابع « الفعل » ، وبقدر قصور حركتنا ازاء حركة الصهيونية كان صوتنا عاليا وتهديداتنا صارخة ومواقفنا عصبية ومتفرقة ، ولكى « نفعل » لابد أن يكون محتوى الفعل واضحا لا يشوبه لبس ، والا غدا قعقعة لا تغنى ، او ارتد الى صدورنا سهاما قاتلة ، ولكى نتحرك ، لابد أن يكون لمسيرتنا غاية نهدف اليها ونهتدى بها ، والا غدا السير فيها فى الصحراء يمكن أن يدور فى حلقة مفرغة ، **لقد تساءلنا كثيرا فى اعقاب النكسة الكبرى عن اخطاء السياسة العربية ازاء اسرائيل ، وفى رأيى أن الخطيئة الاولى فى هذا المجال كانت بالذات عدم وجود سياسة عربية اصلا، لقد تمسكنا بموقف مبدئى هو رفض التسليم بالامر الواقع الذى صنعته الصهيونية بمساندة الاستعمار ، وكان الاصرار على هذا الرفض بالرغم من الهزائم والنكبات والضغوط العنيفة موقفا رائعا ونبيلا ، ولكن** الرفض ذاته لا يكفى لتغيير هذا الواقع ، بل لابد من سياسة ايجابية تستهدف هذا التغيير وتخطط لتحقيقه بنضال دؤوب ، وتغيير الواقع الراهن لا

يمكن أن يعنى مجرد « اعادة الاحوال الى ما كانت عليه قبل ربع قرن أو نصف قرن » . فالتاريخ لا يرجع القهقرى ، وانما يسير الى الامام ، وتصورنا لاهداف نضالنا يجب أن يدخله البعد الزمنى ، فهو بالضرورة تصور للمستقبل الذى نعمل على تشكيله من خلال نضال طويل يستغرق سنوات وسنوات ، ولذلك فهو لابد أن يأخذ فى الحسبان وقائع الحاضر المادية ، واحتمالات الغد فى حياتنا وفى حياة اعدائنا ، وفى حياة العالم المحيط بنا وبهم ، ان الثوريين لا يتجاهلون الواقع ، لانهم يعرفون تماما أن فهمه الكامل شرط لتغييره ، ولكن الفرق بينهم وبين « الواقعيين » يتمثل بالدقة فى أن دراستهم للواقع تستهدف تجاوزه وليس الاستسلام له ، كما أن الثوريين يعرفون أن لكل نضال طويل « استراتيجية » تحدد هدفه الاساسى والاخير ، و « تكتيكات » تمثل خطوات أو مراحل تكمل بعضها بعضا بحيث تؤدى آخر الامر الى الوصول الى الهدف المنشود .

وازاء البلبلة التى يمكن ان يشيعها البعض عن قصد أو عن غير قصد ، لابد من أن نقف قليلا ، ونضالنا الحالى فى منعطف خطير محفوف بالصعاب . لنذكر ببعض الحقائق الاساسية التى تحكم الان ، وستحكم لامد طويل ، كل اوضاع النضال العربى .

التزام مصر العربى

فأولى تلك الحقائق هى التزام مصر العربى ، وهذا الالتزام نابع أولا وقبل كل شىء من عروبة مصر ذاتها ، فالمرء لا يملك أن يتنكر لنفسه أو ينكر حقيقته ، حقا لقد شهدت فترة ما بعد الحربين العالميتين اتجاها فى الدوائر الحاكمة والقيادات البورجوازية ولدى بعض المثقفين نحو عزل مصر عن اخوتها فى العروبة ، وراجت فى بلادنا فى ذلك الوقت دعاوى كالتى يرددها بورقيبة فى السنوات الاخيرة تقول بما يسمى « حضارة البحر الابيض المتوسط » وأن البحر عازل أقوى شأنا من الصحراء ، وأن هدف مصر ـ ذات الحضارة العريقة ـ أن تصبح « قطعة من أوروبا » وليس أن تربط نفسها « ببدو متخلفين » . وكانت تلك الدعاوى ثمرة الغزو الفكرى الذى شنه الاستعمار الاوروبى ، لقد حاول الاستعمار أول الامر أن يفعل بمصر ما فعل بالجزائر فيحرمها لغتها القومية ويفرض لغته مطية لمسخ حضارته ليفقد الشعب العريق شخصيته ، ولكن المقاومة التى لقيها كانت شديدة فغير الاستعمار سياسته فى اتجاهين : **الاول** ، محاربة فكرة الوحدة العربية باسم الرابطة الاسلامية ، والاسلام رابطة دينية روحية لها مكانتها ولا شك ، ولكن العرب بين المسلمين أقلية قليلة لاتبلغ الخمس ، كما ان بين العرب عددا لا يستهان به من المسيحيين . **والثانى** ، محاربة فكرة القومية العربية باسم القومية المصرية . واندفع عدد من المثقفين يمجدون ماضى مصر القديمة ويروجون للزعم بأن العرب كانوا أجانب مسيطرين ، وذهب بعضهم الى حد المطالبة باستخدام « اللغة العامية » بدلا من العربية زاعمين أنها اللغة المصرية . ولكن الانصاف يقضى بأن كل تلك الدعاوى لم تلق رواجا بين جماهير شعبنا ، فرجل الشارع عندنا ظل دائما يعرف نفسه على أنه « ابن العرب » فى مواجهة « الخواجة » . وقبل ذلك ، فى مستهل القرن الماضى عندما نجحت مصر فى نبذ التركية كلغة رسمية ، لم تستخدم « العامية » وانما عادت الى العربية ، ومثقفو القرن التاسع عشر ابناء الفلاحين الذين درسوا فى أوروبا كان همهم الاول أن يكتبوا بالعربية تأليفا وترجمة ، وازاء تزايد الاضطهاد العنصرى التركى فى الشام فتحت مصر أبوابها لرواد الفكر القومى والنهضة العربية فاستقروا بها واسهموا فى تشكيل حياة العرب الفكرية المعاصرة ، وكان من أعظم أعمال ثورة ١٩٥٢ وقيادة عبد الناصر استرداد مصر وجهها العربى واضحا ووضاحا وتقبلها لمسئوليتها التاريخية فى النضال العربى بكل ما تعنيه من اعباء وتضحيات . وصاحب ذلك حركة فكرية وتعليمية تلقى الضوء على روابط الاخوة ، وتبث الواقع العلمى للقومية العربية ، وتنقى الجو الثقافى من شوائب الاقليمية ، وبالنسبة للشباب من جيل الثورة أصبحت عروبة مصر حقيقة لا تحتمل الجدل ، وانحصر الاتجاه الانعزالى فى بعض دوائر البورجوازية المصرية ذات التفكير التقليدى ، وليس أدل على شعور المصريين العميق بقوميتهم العربية من مناقشات المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى العربى فى دورته الرابعة ، لقد دارت أكثر الاسئلة التى وجهها اعضاء المؤتمر الى رئيس الاتحاد الاشتراكى حول مسئوليات مصر ازاء بقية الشعوب العربية وبصفة خاصة ازاء شعب فلسطين ، ونحن لا نحس أدنى تناقض بين اعتزازنا بتاريخ مصر القديم وبين تمسكنا بعروبتنا ، فالحضارة العربية لم تقم على نظرة عنصر ضيقة تقول بتفوق أو سيادة عرب الجزيرة ، بل كانت عبقريتها تتمثل أساسا فى تفتحها على الحضارات التى سبقتها واستيعابها لها فى جو التسامح الاسلامى المعروف ، وشعب مصر حين استعرب قدم للحضارة العربية كنوز تاريخه العريق .

وعروبة مصر ليست مغنما لشعبها ، ولكنها مسئولية كبرى . فنحن ثلث الامة العربية ، وموقع مصر الجغرافى يجعل منها نقطة الالتقاء بين عرب الشرق وعرب الغرب ، وطاقات شعبنا الاقتصادية والثقافية . وتاريخنا المعاصر يلقى علينا اعباء جساما فى النضال العربى ، ولا شك أنه لا فخر باداء الواجب ، ولكن الامانة التاريخية تقتضى أن نذكر فى هذا المجال أن شعب مصر قد أعطى

للقضايا العربية الكثير فى غير مقابل، بل ودون ان ينتظر أى مقابل ، لقد حصل كل نضال تحررى على أرض العرب على العون والتأييد من جانب مصر ، والحقيقة الناصعة فى ان هذا الشعب الاصيل لم يبخل بشىء ، وما لنا نذهب بعيدا ، مع أنه معروف للخاص والعام، ان الضغط الامريكى المركز على مصر منذ أواخر ١٩٦٤ كان يستهدف رسميا تخلى القاهرة عن القضايا العربية وفى مقدمتها قضية فلسطين ؟ وكان اخفاق هذا الضغط فى احداث التحول المطلوب فى السياسة المصرية من الاسباب التى دفعت الى عدوان ١٩٦٧ الذى كان يرمى الى ضرب النظام التقدمى الذى التزمت مصر فى ظله بطريقها الصحيح ، طريق القومية العربية المتحررة .

والتزام مصر العربى فى قضية فلسطين بالذات له أساس آخر ، فالاستعمار الصهيونى تهديد مباشر لارض مصر وشعب مصر ، ومطامع اسرائيل الرسمية تشمل أجزاء من أرضنا ، ومنذ ان وجدت اسرائيل قامت بحربين عدوانيتين ضد مصر بالذات وليس ضد أى بلد عربى آخر ، والامر لا يقتصر على الطمع فى جزء من سيناء ، وانما هو أعمق من ذلك وأبعد ، فالعدو الصهيونى ، ومن ورائه الاستعمار العالمى ، يدرك أن العقبة الاساسية أمام كل محاولة اجنبية للسيطرة على الوطن العربى هى مصر ، وبالتالى فلن يهدأ له بال أو يستقر به حال الا اذا كسر المقاومة المصرية ، فاما أن يتنكر الشعب العربى فى مصر لعروبته وينطوى على نفسه ويستسلم للاستعمار الجديد ، واما تقف له الصهيونية والاستعمار بالمرصاد، تحاول استزاف قواه وتعطيل تقدمه وضرب منجزاته ، لقد قيل أن اسرائيل باحتلالها سيناء حركت من الاعماق الوطنية المصرية ، وما يجب أن يقال هو أنها فتحت أعين الجميع على حقيقة أن مصر لا تملك أن تتجاهل خطر الصهيونية ، وتصريحات قادة العدو بالغة الدلالة على حقدهم على مصر ، فحين عدل جمال عبد الناصر عن الاستقالة استجابة لرغبة الجماهير الشعبية صرح بن جوريون فى اليوم التالى ـ ١١ يونية ١٩٦٧ ـ قائلا : « ما دام عبد الناصر قد عاد الى السلطة فكأننا لم نكسب الحرب» . ان العدو ذكى وعلى علم بحقائق بلادنا العربية وتاريخها ، وهو يعلم انه فى كل مرة صمد الشعب المصرى أمام الغزاة انحسرت موجتهم عن الوطن العربى كله : وهذا ما حدث مع الصليبيين ومن بعدهم مع المغول ، وفى المرات التى هزم فيها الشعب المصرى نجح الغزاة فى بسط سيطرتهم على كل البلاد العربية ، وهذا ما حدث اثناء الغزو العثمانى ، ثم فى فترة الاستعمار الاوروبى .

لكل ذلك فانها لكبيرة أن يقول بعض المزايدين من تجار السياسة بأن مصر تبحث عن مصلحتها بعيدا عن مصلحة العرب القومية ، وانه لخطأ جسيم أن يكون رد الفعل عند بعضنا أمام الجحود والتشهير دعوة لنفض يدنا من القضايا العربية ، فكل محاولة للحد من قيام الشعب المصرى بمسئولياته التاريخية نحو المصير العربى خدمة مباشرة للاستعمار والصهيونية .

استراتيجية النضال العربى

والحقيقة الثانية التى كثيرا ما نرددها، ثم لا نرتب عليها نتائجها العملية، هى ان اسرائيل حلقة رئيسية فى مخطط الامبريالية العالمية للسيطرة على الوطن العربى وامتصاص ثرواته واستغلال شعوبه ، ولقد دبجت الابحاث والمقالات والخطب التى تبين أن اسرائيل رأس جسر للاستعمار الغربى ، وأداة بالذات بيد الاستعمار الامريكى ، وقاعدة للعدوان ضد حركة التحرر العربى . وكلب حراسة للمصالح الاستعمارية، فضلا عن دورها الاستعمارى المتحامى بها، والنتيجة المنطقية لهذا كله هى أن الترابط بين الدولة الصهيونية وبين الامبريالية العالمية ترابط عضوى لا فكاك له ، فاسرائيل بحاجة الى مساندة الدول الاستعمارية لتعيش وتتوسع ، والدول الاستعمارية فى حاجة الى اسرائيل وجيش اسرائيل لحماية مصالحها الاستعمارية فى المنطقة وضرب حركة التحرر العربى ، ومؤدى ذلك أن النضال ضد الصهيونية لا ينفصم عن النضال ضد الاستعمار ، **والامر الذى لا يحتاج الى برهان هو أن اسرائيل أقوى قواعد الاستعمار فى الوطن العربى ، ومن ثم فلابد من حركة التفاف حولها تتمثل فى تصفية قواعد ومصالح الاستعمار فى الاقطار العربية ، فهذه التصفية تحرم الاستعمار من وسائل يستخدمها فى مساندة اسرائيل ، كما انها تجعل اسرائيل ، تفقد اهميتها فى نظره ككلب للحراسة « وانكشارية جديدة »** . ولنا فى موقف فرنسا دروس عميقة المعانى ، لقد حاربت فرنسا الى جانب اسرائيل سنة ١٩٥٦ ، ثم وقفت موقف الحياد سنة ١٩٦٧ ، ثم أصبح هذا الحياد متسما بالعطف على قضية العرب ، ان النظرة الذاتية والشخصية لقضايا السياسة تجعل الكثيرين منا يفسرون هذا التغير فى موقف فرنسا بالتغيير فى الاشخاص، فيقول ان جى موليه عميل للصهيونية وديجول رجل مبادىء ، ولكن تلك النظرة ساذجة وفجة ، فالديجوليون فى البرلمان الفرنسى لم يعارضوا حملة السويس سنة ١٩٥٦ . بل ان وزير خارجية فرنسا الحالى كان عضوا بوزارة جى موليه ، وها قد ذهب ديجول ولم تتغير السياسة ، ان أساس التغيير هو أن السنوات الاحدى عشرة قد شهدت حدثا ضخما هو انتهاء حرب الجزائر بانتصار الشعب الشقيق واعلان استقلاله ، وفرنسا اشتركت فى حملة السويس لا حبا فى اسرائيل ، وانما انتقاما لتأميم قناة السويس وسعيا لضرب ثورة الجزائر فى القاهرة ،

أما الآن وقد صفيت المواقع الاستعمارية في الوطن العربي ، فانه لم يعد لاسرائيل أهميتها الحيوية في نظر باريس ، وأدركت أقسام واسعة من الرأسمالية الفرنسية أنها لم تخسر الجزائر فحسب ، وانما كانت حرب السويس كارثة على كل مصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسي والثقافي في الشرق العربي ، لقد دفعت فرنسا ابهظ الاثمان ، وكان طبيعيا أن تحاول استعادة العلاقات الاقتصادية والثقافية مع البلاد العربية ، وأن ترفض أن تقف المطامع التوسعية الاسرائيلية عقبة أمام التعامل مع سوق تضم قرابة المائة مليون ، وأرض تضم ثروات ضخمة ، وأثبتت تلك السياسة الجديدة نجاحها بالفعل اذ فتحت امام فرنسا باب صفقات مربحة في مجال السلاح والبترول ، وبالمثل يمكن أن نتوقع أنه يوم ينجح العرب في تأميم البترول ، أو حتى المصالح الامريكية فيه فحسب ، ستفقد اسرائيل كثيرا من أهميتها في نظر الولايات المتحدة .

ولهذا الوضع أثره المباشر على علاقات القوى في المنطقة ، فازاء أي تهديد لاسرائيل لابد أن يتدخل الاستعمار عسكريا لحمايتها ، وهذا لا يصدق على الولايات المتحدة وحدها بل ان بريطانيا ستقف بجانبها ، وكذلك الشأن مع فرنسا ، وقد صرح ديجول نفسه أكثر من مرة منذ ١٩٦٧ أنه لو كانت اسرائيل واقعة تحت اي تهديد حربي لكان موقف باريس مختلفا تماما ، هذا فضلا عن أن الرأي العام العالمي بكل وزنه سيساند عندئذ الدولة الصهيونية .

ولكن الاهم من ذلك وتلك هي الحقيقة الثالثة هو أنه في حدود علاقات القوى الحالية في المنطقة لا يستطيع العرب سحق العسكرية الاسرائيلية حتى بدون تدخل مباشر من القوات الاستعمارية، وعبثا نحاول ان ندور حول هذه الحقيقة برفع شعار « الحرب الشعبية » ، ذلك أن الحرب الشعبية في جوهرها حرب ثورية يخوضها شعب ضد جيش احتلال أجنبي أو جيش رجعي محلي وهدفها في الحالة الاولى اقناع المحتل باستحالة الاستمرار في الاحتلال لان تكلفته باهظة تفوق بكثير كل المزايا التي يحصل عليها المستعمر منه ، وهذا بالدقة ما حدث في الجزائر فحمل حكومة ديجول على المفاوضة ثم الانسحاب ، أما في الحرب الاهلية ، فان الحرب الشعبية اما أن تقضي الى انهيار النظام الرجعي من الداخل ، واما أن تتحول الى حرب نظامية ، وجيوش ماوتسي تونج التي وجهت الضربة القاضية لتشانج كاي تشيك واحتلت بكين وكانتون وشنغهاي كانت جيوشا نظامية ، أما اسرائيل فانها تمركز قوتها الضاربة داخل حدود دولية معترف بها وفي اطار سيطرتها العددية ، وفي الحرب الشعبية يستهدف الثوار دائما تحرير بعض المناطق ليستقروا فيها ويكونون جيشا نظاميا (وهذا ما حدث في الصين) . ولذلك فلا معنى للقول بتعميم المواجهة بين العرب والاستعمار بحرب شعبية في كل مكان ، ولو كان ثمن ذلك سقوط الدول المتحررة في قبضة العدو ، وحتى لو تخيلنا جدلا مثل تلك المواجهة العامة ، فان الحرب الشعبية بطبيعتها ليست حربا خاطفة ولكنها سنوات قتال طويلة .

ولكل ذلك فلابد من أن نتخلى عن نفاد الصبر وقصر النفس ، وبدل أن نعلل أنفسنا بعمل خارق ينهي الامر في أمد وجيز علينا أن نهيئها لنضال طويل ومرير ، ولنا أن نتمثل تجربة العدو الصهيوني الذي رسم استراتيجيته على مدى قرن كامل ، فقد مرت أكثر من عشرين سنة بين تحديد الصهيونية لهدف اقامة دولة في فلسطين وبين الحصول على وعد بلفور ، ومرت ثلاثون سنة بين الوعد المشئوم واقامة الدولة بالفعل على جزء من فلسطين، ولم يكن كل ذلك في نظرهم الا خطوة اولى وعلينا من ناحية اخرى ان نتذكر ان الحرب في عالم اليوم ليست ظاهرة عسكرية خالصة ، بل ان القوة العسكرية الان هي التعبير الاخير عن تقدم اقتصادي وتكنولوجي وطاقات بشرية اخذت بأسباب الحياة الحديثة ، ومن ثم فان تطوير اقتصادنا القومي ، وتصنيع بلادنا ، وتحرير الانسان العربي من القهر والاستغلال ، واتاحة أحدث المعارف البشرية له جزء من عدتنا في النضال ، وأخيرا ، ان علاقات القوى الدولية ، وموقف الرأي العام العالمي ، بل وحالة الرأي العام داخل اسرائيل نفسها ... كلها عوامل لها تأثيرها الهام في مجرى الصراع ، ويجب أن تحظى بجانب كبير من عناية العرب .

نعم ، اننا بصدد صراع طويل ومرير ، ولابد اذن من تخطيط طويل الامد لهذا الصراع ، أو بعبارة أخرى لابد من تحديد استراتيجية لصراعنا ضد الصهيونية والاستعمار فندرج داخلها في اتساق معاركنا المتتالية ، وكل استراتيجية تتحدد بتحديد الهدف الذي نسعى لتحقيقه ، ومن ثم لابد من وضوح الرؤية حول هدف النضال العربي ضد الصهيونية والاستعمار ، ولنقل بصراحة اننا لا نستهدف بحال من الاحوال ابادة اليهود المقيمين على أرض فلسطين ، أو القاءهم في البحر ، أو طردهم بالقوة ، فمثل تلك الاغراض غريبة تماما عن تقاليدنا الحضارية ، وطوال تاريخنا كله كانت رسالة العرب حضارة وسلاما ولم تكن يوما تخريبا وابادة ، كما أن المشكلة في مستوى الصراع الحالي ليست مشكلة « ثأر » ، لسنا بصدد تطبيق القانون العبراني « العين بالعين والسن بالسن » وأن نفعل باليهود في اسرائيل ما فعله الصهاينة بالعرب، انما نريد بوضوح «**تصفية وضع اسرائيل كقاعدة صهيونية استعمارية في قلب الوطن العربي** » . وهذا يعني على سبيل التحديد أمورا ثلاثة :

- **حق الشعب الفلسطيني في أرضه ووطنه واستقلاله .**

● **الا يعنى وجود يهود فى فلسطين الادعاء بوجود وطن بها لكل يهود العالم .**

● **الا يكون هذا الوجود تجسيدا لارتباط بالغرب الاستعمارى .**

وبعبارة أخرى ، يتوقف مستقبل الاسرائيليين على مدى تسليمهم بحقوق شعب فلسطين ، وفصمهم لعرى الصهيونية العالمية ، وتقبلهم أن يصبحوا جزءا من المنطقة التى يعيشون فيها وليس راس جسر اجنبى ضد امالها وامانيها. ان الامة العربية حين تناضل فى سبيل وحدة أراضيها ، وحين تضع صيغة اتحادية تجمع شملها، تدرك حقيقة أن هذه الارض تضم فى أجزاء منها أقليات قومية ، والشعار الثورى الوحيد هنا هو التمسك بوحدة التراب العربى مع احترام حقوق الاقليات القومية ، اننا نؤمن بفكرة أن شعبا يقهر شعبا آخر لا يمكن أن يكون هو نفسه شعبا كامل الحرية ، والثورة العربية بأبعادها التحررية والتقدمية تلفظ القهر القومى والتعصب العنصرى فى كل الصور ، اننا لا يمكن أن نقبل بقاء قاعدة استعمارية عدوانية على ارضنا ، ولكننا لانضمر عداء عنصرياليهود كأفراد ، وغنى عن الذكر أن نقطة التحول فى نضالنا الاستراتيجى هى أن نبلغ من التقدم الاقتصادى والثقافى والقوة العسكرية ما يبدد نهائيا أحلام السيطرة الصهيونية وما يفرض فرضا داخل اسرائيل استقطابا واضحا بين أولئك المتعصبين الذين لا يحلمون الا بالغزو والتوسع ، وأولئك الذين ستبدو فى نظرهم سراب الصهيونية فيقررون العيش مع العرب والتعايش معهم . وليس كل شىء من ذلك بالمنظور فى الغد القريب .

واهمية وضوح الهدف الاستراتيجى تتمثل فى أنه المعيار الذى تقوم فى ضوئه نتائج أى معركة تكتيكية ، ففى كل خطوة نخطوها ، وكل عمل نقدم عليه ، وكل تسوية نقبلها علينا ان نطرح السؤال الاتى : هل يقربنا ذلك من الهدف المنشود ام يبعدنا عنه ؟ وكلما كان الجواب بالايجاب علمنا اننا نسير على الطريق السليم .

تصفية آثار العدوان

وقضية فلسطين

والحقيقة الرابعة ، التى ضاعت فى خضم المهاترات ، هى أن القاهرة بقبولها « مقترحات روجرز » لم تغير موقفها ، وان استمرت على الخط الذى تحدد فى مؤتمر القمة العربى المنعقد فى الخرطوم فى أغسطس سنة ١٩٦٧ ، لقد حدد ذلك المؤتمر للعمل العربى بعد هزيمة يونية هدفا محددا هو « **ازالة آثار العدوان** » ، وفتح الباب أمام الوصول لهذا الهدف لكل مساعى التسوية السياسية مادامت تستبعد المفاوضة مع اسرائيل والاعتراف بها وعقد صلح معها ، وابتداء من هذا الخط قبلت مصر قرار مجلس الامن الصادر فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ ورحبت بمحادثات الدول الاربع الكبرى – وهم الاعضاء الدائمون فى مجلس الامن – وبمباحثات الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية ، ونشطت دبلوماسيتها الرسمية والشعبية لتوضح للرأى العام العالمى حكومات وشعوبا ان قضيتنا قضية جلاء عن اراض محتلة بالقوة ، واننا نرحب بتحقيق هذا الجلاء سياسيا والا اضطررنا للنضال من أجله عسكريا ، ولايمان القاهرة العميق بضآلة احتمالات نجاح مساعى التسوية السلميه من ناحية . وبأهميه القوة العسكرية فى زيادة تلك الاحتمالات من ناحية أخرى لم ندخر أى جهد فى بناء جيش حديث قوى ومدرب ، وربما كان بين أهم ثمرات هذه السياسة الحكيمة أن حلفاءنا الطبيعيين حين لمسوا فى مواقفنا الجدية والنضوج والبعد عن المغامرة استطاعوا أن يضعوا كل ثقلهم الى جانبنا ، وليس سرا أن الاتحاد السوفيتى تحمل ازاءنا بالتزامات لم يتحمل مثلها قط خارج المعسكر الاشتراكى ، والان حين تؤدى هذه السياسة بجوانبها العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية الى تعديل فى علاقات القوى تضطر ازاءه واشنطون الى تعديل موقفها بعد أن ظل ثلاث سنوات كاملة مبنيا على المساندة الكاملة وغير المشروطة لاهداف اسرائيل التوسعية ، يتعالى الصراخ فى بعض العواصم العربية ولدى بعض القوى السياسية ضد ما يسمونه « التخاذل » وتصفية قضية فلسطين .

ومن الامتهان للعقل أن نقف ولو لحظة عند الاتهام بالتخاذل حين يردده من ضن بالمدفع أو الطائرة أو الطيار ضد من صمد وقاتل وتحمل أعباء الحرب العصرية [وغير خلف أن أعباء هذه الحرب وقعت أساسا على المقاتلين فى خط القتال كما حملت الجبهة السورية أيضا نصيبها]

.. وعلى العكس لابد أن نطرح فى صراحة أثر « تصفية آثار العدوان » على قضية شعب فلسطين ، فمنذ أن تطورت المقاومة الفلسطينية والتفت حولها أفئدة العرب ، وهذا التساؤل وارد ، ولكن معظم الناس كانوا يحجمون عن الاجابة عليه لانها فى نظرهم شائكة ، أو يمكن ان تفت فى عضد المقاومة ، او لاتروق فى نظر منظمات المقاومة وشبابها الفدائى (١) . ولكن العواطف هنا غير ذات غناء ، ولا مجال فى هذا

---

(١) عالجت هذا الموضوع تفصيلا فى كتابى « فى مواجهة اسرائيل » الذى صدر عن دار المعارف فى يولية ١٩٦٩ (سلسلة اقرأ) .

الصراع المصيرى الرهيب الا للتفكير الهادىء والحساب الدقيق ، ان جوهر تصفية آثار العدوان هو انسحاب اسرائيل الكامل من جميع الاراضى التى احتلتها فى يونية سنة ١٩٦٧ ، ولكى نقدر تقديرا سليما اثر هذا الانسحاب على قضية فلسطين لابد أن نبحث أولا كيف يمكن ارغام اسرائيل على الجلاء .

اننى من أولئك الذين يعتقدون أن فرص التسوية السياسية مازالت ضئيلة للغاية لاسباب متعددة أهمها ان اسرائيل مازالت تؤمن بتفوقها العسكرى وبالتالى بقدرتها على فرض شروطها وتحقيق توسع اقليمى جزئى على الاقل ، ولكن لنفرض أن ضغط الرأى العام العالمى والتغير فى علاقات القوى واعتبارات السلام العالمى يحمل الدول الاربع الكبرى على أن توفر لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ضمانات التنفيذ ، اى ان تجبر اسرائيل على الانسحاب دون قتال فماذا سيكون اثر ذلك على اسرائيل نفسها من ناحية ، وعلى الثورة الفلسطينية من ناحية اخرى ؟ ان اسرائيل ولدت بالعنف وتوسعت بالقوة وعاشت بالارهاب ، فمنذ سنة ١٩٤٧ حتى الآن نجحت اسرائيل باستمرار فى فرض ما تريد بالقوة ، تلك قضية حيوية بالنسبة للوضع الداخلى فى الدولة الصهيونية ، فأولئك الذين فروا اليها خوفا من اضطهاد حيث ولدوا ، أو أملا فى حياة أفضل ماديا وأدبيا ، لن يستقر بهم المقام الا اذا اطمأنوا تماما لقدرة اسرائيل على أن تعيش بالقوة ، وأن تتوسع بالتدريج ، وأن ترغم العرب فى النهاية على التسليم بوجودها والاستسلام لسيطرتها الاقتصادية ونفوذها السياسى ، وبعبارة أخرى تقوم نظرية « الامن الاسرائيلى » على التفوق العسكرى المطلق ، وفعالية هذا التفوق فى المحافظة على ديناميكية الانتشار الاستعمارى ، ولو أجبرت اسرائيل على الانسحاب دون أن تجنى من حرب يونية توسعا اقليميا ، فان معنى هذا أن سياسة القوة لم تعد فعالة أو مثمرة ، وبالتالى تنهار آمال التوسع الاقليمى وأحلام السيطرة الاسرائيلية ، بل تهبط مكانة اسرائيل ككلب حراسة للمصالح الاستعمارية ، وبالتالى تقل قدرتها على الحصول على مساعدات ضخمة من الدول الاستعمارية ، ومحصلة ذلك كله شعور بالقلق ، ومصاعب اقتصادية ، وخلافات سياسية حادة ، وفضح لسراب الصهيونية أمام أقسام متزايدة من الشعب الاسرائيلى ، ولن يكون غريبا عندئذ أن تتجدد على نطاق واسع الظاهرة التى شهدتها اسرائيل سنة ١٩٦٦ : زيادة الهجرة منها عن الهجرة اليها ، ولاشك أن هذا فى ذاته كسب جوهرى لنضال الشعب الفلسطينى . ولكن يضاف الى ذلك أن هذا الشعب الشهيد ليس طرفا فى مثل التسوية التى نتحدث عنها ، لان المجتمع الدولى لم يعترف به بعد ولم يفاوض أحد فيها ، وبالتالى فانه لا يمكن أن يلتزم بها ، فليس لاحد وصاية عليه ، ولا يملك أحد غير الفلسطينيين انفسهم ان يتحدث باسمهم ، وعلى من يريد تسوية منهم أن يفاوضهم ، ويوم يفوز شعب فلسطين بالاعتراف به والتفاوض معه ، تكون الثورة الفلسطينية قد عبرت أعسر مراحلها ، والشعوب العربية لابد أن تساند الشعب الفلسطينى فى نضاله فيما وراء تصفية آثار العدوان ، ولا توجد قوة تستطيع أن تحول دون هذا التأييد الشعبى ، ولنذكر تأييد الشعوب العربية لشعب الجزائر وما أتاحه هذا التأييد من امكانيات حتى فى أقطار كانت حكوماتها تعارض « أعمال العنف » التى تقوم بها الثورة الجزائرية .

فاذا انتقلنا الى « الحل العسكرى » فيجب أن نتذكر دائما ان الحرب ليست مغامرة نلقى فيها بأنفسنا وعدتنا فيها عدالة القضية وبطولة الرجال ، **ان الحرب ليست الا امتدادا للسياسة بصورة عنيفة ، ولذلك فانها لابدان تخضع لكل ما تخضع له السياسة من تقديرات وحسابات** ، بل ان الحرب أعنف صور السياسة وأحفلها بالمخاطر ، وبالتالى أجدرها بدقة التقدير والحساب ، وهنا نعود فنكرر ان علاقات القوى على المستوى المحلى ودون تدخل مباشر من جانب الجيوش الاستعمارية ، لا تجعل من الممكن للعرب أن يسحقوا العسكرية الاسرائيلية بحيث يصبح ميسورا أن يفرضوا على اسرائيل شروط السلام العادل التى تؤمنهم نهائيا ضد الصهيونية ومخططاتها ، انما الامر الممكن ، والذى لابد أن يكون ، هو أن تهزم الجيوش العربية ـ وبالذات فى جبهة القناة ـ جيش اسرائيل وترغمه على التراجع منسحبا من الاراضى التى احتلها فى عدوانه الاخير . عندئذ يصبح من المتصور أن يصدر مجلس الامن قرارا بوقف اطلاق النار مع انسحاب اسرائيل الى حدود ٤ يونية سنة ١٩٦٧ ، وأن تنصاع اسرائيل لمثل هذا القرار . وعندئذ يصبح السؤال : هل تستمر الجيوش العربية فى الحرب ضاربة عرض الحائط بالرأى العام العالمى ، وتواجه الاسرائيليين وهم يقاتلون مستميتين لان ظهرهم الى البحر ، ونقبل فتح الباب لتدخل عسكرى استعمارى مباشر تحت شعار حماية اسرائيل من التدمير والابادة ؟ وبعبارة أخرى هل نتجاوز الحساب الدقيق ونقبل على مغامرة نتائجها معروفة مقدما ؟ أم الاولى أن نقف لنترك آثار الهزيمة تحدث أثرها المفكك داخل اسرائيل ؟ . ان الاجابة على هذا التساؤل يجب أن تكون واضحة وقاطعة .

ومهما يكن الشكل الاخير الذى تتخذه تصفية آثار العدوان ، فانه لابد ان يصطحب بتقدم اساسى تحرزه الثورة الفلسطينية . واذا قصرنا النقاش على احتمال التسوية السلمية فان أساس تلك التسوية هو قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، والقرار

المذكور يشترط للتسوية الوصول الى « حل عادل لمشكلة اللاجئين في ضوء قرارات الامم المتحدة ». ونحن نعرف أن تلك القرارات تنص على أن يخير اللاجئون بين العودة والتعويض . وعندئذ يمكن أن نتصور للعمل الفلسطيني أهدافا مباشرة مثل :

ـ **دعوة اللاجئين الى اختيار العودة** ، فلو طالب نصف مليون فلسطيني فقط بالعودة لفجر ذلك مشكلات ضخمة أمام اسرائيل، فهي اما ان ترفض وتتحدى الرأى العام العالمي وتقدم بذلك مسوغا جديدا لاعمال المقاومة ، واما ان تقبلها فتواجه مصاعب داخلية لا حد لها .

ـ **مطالبة الأمم المتحدة** بتطبيق قراراتها السابقة التي لم تحترم ، وفي مقدمتها قرار التقسيم، اننا مازلنا نعتبر هذا القرار عملا غير مشروع وعدوانا على شعب فلسطين ، ولكن هذا لا ينبغي أن يمنعنا من مطالبة من أصدروه بأن ينفذوه .

ان **المقاومة الفلسطينية** ترفع شعار « دولة فلسطين الديمقراطية » التي تضم العرب واليهود ، أى انها كحركة ثورية أصيلة تنبذ شعارات الابادة والتشريد والطرد ، والنتيجة الحتمية لهذا الشعار الثورى هي ضرورة عمل كل ما من شأنه اقناع الناس العاديين في اسرائيل بأنه لا مستقبل لهم في المنطقة الا في ظل تلك الدولة الديمقراطية ، وهذا الاقناع سبيله الاول ولاشك هو المقاومة العنيفة التي تقلق الوجود الصهيوني ، ولكن سلاحه الاخير ـ الذى لا يقل أهمية ـ هو تقديم الحلول العملية البديلة .

وحدة القوى الثورية

والحقيقة الخامسة هي أن **مستقبل الثورة الفلسطينية بيد الفلسطينيين انفسهم قبل كل انسان** ، ولا يمكن لقوة في الوجود أن تصفي الثورة الفلسطينية ، اذا أخذ الفلسطينيون بأسباب دعم الثورة وتقدمها ، وان من واجب كل ثورى مخلص أن يقول للاخوة المناضلين رأيه في صراحة ، وليس في ذلك أى نوع من الوصاية ، حيث لا التزام لاى رأى ، وفي تقديرى أن الثورة الفلسطينية مطالبة من أجل تقدمها بأن :

● **تنوع وتطور أساليب كفاحها** ، فالعمل الفدائي بكل ما به من بطولات لا يمكن أن يكون الشكل الوحيد للنضال الثورى ، بل انه يؤتى أفضل نتائجه حين يستند الى قاعدة عريضة من العمل السياسي والجماهيرى .

● **تلتحم بالجماهير الفلسطينية العريضة** التحاما عضويا بحيث تكون التجسيد الحي لامالها وأمانيها ، والمعبر الصادق عن مطالبها العاجلة والاجلة .

● **توحد صفوفها** ، ليس فقط باتفاقات علوية ، ولاعن طريق تبني شعارات غلاة المزايدين وانما من خلال العمل الجماهيرى الواسع النطاق ، فالجماهير هي التي يجب ان تحسم الخلاف حول الخط السياسي او اساليب النضال او مطالب المرحلة ، ان المنطق الثورى الذى يفرض الاوصاية من الخارج على الثورة الفلسطينية، هو نفسه الذى يفرض الاوصاية على الجماهير الفلسطينية، ان الثوريين الحقيقيين ليسوا ابرع صناع الشعارات، وانما هم اولئك القادرون على الالتحام بالجماهير والتعلم منها والاصغاء لها واحترام ارادتها والتفاني في خدمتها .

● **توثق الروابط النضالية مع كل قوى الثورة العربية** ، انه من غير المقبول من اولئك الذين أمضوا عشرين عاما من حياتهم السياسية يروجون لفكرة الا حل لمشكلة فلسطين الا من خلال الثورة العربية الشاملة ، أن يزعموا اليوم الا صلة بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية، وانه لمرفوض تماما القول بأن قضية فلسطين لا تعني الا شعب فلسطين ، فهذا انكار لحقيقة القومية عربية ، وتجاهل بطبيعة خطر الصهيوني ، وعزل لشعب فلسطين عن أكبر سند له في نضاله ، كذلك ينبغي التحذير من دعاوى قيادة هذا الفريق او ذاك من حركات المقاومة للثورة العربية تأسيسا على أن العمل الفدائي في ساحة المعركة اعلى اشكال العمل الثورى ، فأى اتجاه من هذا القبيل يحول أصحابه من ساحة النضال المباشر الى معترك تفتيت قوى الثورة العربية بزعم التأصيل في الاهداف والوسائل او التطهير ممن هم أقل ثورية ، ان الثورة الفلسطينية جزء لا يتجزأ من الثورة العربية ، والامل ان تكون عامل تجميع لتلك القوى يبرز نقاط الالتقاء ، وليس عامل تفريق يذكى التناقضات او « يلعب عليها » .

● **تنسق على أوسع نطاق مع كل القوى المعادية للاستعمار على المستوى العالمي** . فالثورة الفلسطينية حركة تحرر وطني متدرج في التيار الجارف للثورة الوطنية المعاصرة الملتحم بتيار الثورة الاشتراكية العالمية ، وهنا ايضا يجدر ان يتذكر الجميع ان الثورة لا تتغذى بالكلمات ولو كانت نارية ، وانما تتقدم بالدعم السياسي والعسكرى الفعال، وليس للثورة الفلسطينية نفع في أى حملات تشن على الاتحاد السوفيتي او تتهمه بالتآمر مع الامبريالية الامريكية ، فقد اثبتت الاحداث والشواهد بما لا يحتمل الجدل ان الدولة

الاشتراكية العظمى أوفى صديق للعرب ، وأن وزنها الكبير بامكانياتها الضخمة سند للنضال العربى لا يعادله سند .

الحقيقة السادسة

وهذا الفهم للامور يقودنا ضرورة الى الحقيقة السادسة فى الموقف العربى — وليس العد ترتيبا لاهمية — الا وهى اهمية وحدة القوى الثورية العربية فى النضال ضد الصهيونية والاستعمار .

ان السنوات العشر التى سبقت العدوان قد شهدت تلك القوى وهى تختلف فيما بينها كاشد ما يكون الخلاف ، وتتصارع حتى يبلغ الصراع حد الصدام الدموى . وكانت محصلة ذلك كله ان اختلطت الامور اختلاطا شديدا ، واستنزف الصراع الداخلى بين القوى الثورية طاقات ثورية هائلة ، وحرم النضال العربى من كثير من المناضلين ذوى الخبرة والصلابة ، وانفتح الباب عريضا امام عناصر الثورة المضادة بل وعملاء الاستعمار ليتسربوا الى صفوف الوطنيين ليصطادو فى الماء العكر ، ويذكون الاحقاد فى سبيل المؤامرة والمغامرة وسفك الدماء ، وكانت الجماهير العربية تأمل ان تفتح هزيمة يونية بأبعادها الرهيبة العيون على حقيقة من ابسط الحقائق النضالية الا وهى ان مايجمع بين المناضلين ضد الاستعمار قديمه وجديده اكثر بكثير ممايفرق بينهم ، ولنكن فى غاية الوضوح فى هذا الصدد : **اننا لاندعو باية حال الى مصالحة غير مبدئية او مهادنة وقتية ، اننا نؤمن تماما ان وحدة الثوار لا تتم الا حول خط ثورى ،** ولكن الالتقاء حول خط ثورى لا يعنى تلاشى كل الخلافات ، والا اصبحت كل القوى الثورية قوة واحدة تماما ، وانما المقصود هو الالتقاء حول خط ثورى اساسى فيما يتعلق بالمعركة الرئيسية مع الاحتفاظ بوجهات النظر المختلفة فى قضايا اخرى كثيرة ، والخط الثورى ليس شعارا يلقى على كثيرة ، والخط الثورى ليس شعارا يلقى على عواهنه ، ولا يجد ترجمته فى التزام واضح بعمل محدد ، وانما الخط الثورى **برنامج عمل** يصاغ فى وضح النهار وتتبناه الجماهير ، ويلتزم به كل من يلتقون حوله ، ويضعون كل امكانياتهم فى سبيل تحقيقه ، ان جماهيرنا قد ضاقت بالشعارات واصبحت تشمئز من « الكلمات الثورية » حين ترن جوفاء ، ولا تتجسد الا فى السجن وسفك الدماء ، ان طريق الوحدة بين القوى الثورية له معالم واضحة لا يجوز لمن يفتقدها بعضها او كلها ان يدعى لنفسه شرف النضال الثورى :

١ — **النضال الحاسم والنضال ضد الاستعمار :** فلن تأخذ الجماهير العربية مأخذ الجد من يدعو فى كل يوم لتشديد النكير على الاستعمار واعوانه ، وهم يدارون الاستعمار فى عقر داره فلا يصفون مواقع الاستعمار القديم ، او يفتحون الباب لسيطرة الاستعمار . وأولى بالمتحدثين اليوم عن التخاذل عن نصرة فلسطين ان يؤمموا معاقل الاستعمار فى بلادهم ، وان يسيروا بجد فى طريق البناء الاقتصادى المستقل بدل الاعتماد على « معونات » الاستعمار ، وتسليم موارد البلاد لاحتكاراته .

٢ — **الحرص على وحدة القوى الوطنية والثورية على المستوى القطرى :** فلايمكن ان يكون المرء وحدويا على المستوى القومى ، ومفرقا للصف على المستوى القطرى ، وحين يبطش نظام حاكم القوى الوطنية ويزج بالمناضلين فى المعتقلات ويدبر لهم المحاكمات او حتى الاغتيالات ، فانه يخدم موضوعيا الاستعمار لانه يضرب قوى تعاديه وتناضل ضده .

٣ — **الثقة بالجماهير والاستناد اليها وتعبئتها واشاعة جو من حرية الرأى يمكنها من الحركة الفعالة والمنظمة ،** فلايمكن أن نصنع سعادة البشر رغم أنوفهم ، ومن العبث الحديث عن الثورة ، وهى بالضرورة عمل لصالح الشعب ، حين يحس الشعب بأنه يعيش فى سجن تضيق به فيه سبل الحياة .

٤ — **العمل على وحدة الصف العربى فى النضال ضد الاستعمار :** فكل قوة ثورية حريصة على مستقبل الثورة العربية يمكنها ان تجمع دائما بين ابداء رأيها الخاص والابقاء على وحدة القوى الثورية ، انها تختلف ولا تصل الى القطيعة ، اما اولئك الذين يستغلون بشكل بعيد تماما عن المبادىء ، أى اختلاف فى محاولة منظمة للتهجم على قوى وطنية وتقدمية للنيل منها او التآمر ضدها فانهم — ازاء نضج الجماهير — يمارسون تجارة خاسرة . فلن تكسبهم الديماجوجية فى بلادهم شعبية افقدتهم اياها المؤامرات والمحاكمات والمذابح والفساد والسعى الدائم للمصالح الشخصية والحلقية على حساب مصالح الجماهير العريضة ، اما تطلعهم « لزعامة على مستوى القوى » فشأنهم فى هذا كناطح صخرة يوما ليوهنها .

● ● ●

وبعد لقد طال هذا الحديث ولكن الوقت وقت مصارحة ، والنصر فى صراعنا المصيرى الرهيب مرتهن بنضجنا السياسى ، أى بقدرتنا على ادراك الحقائق المادية ادراكا كاملا لا تحد منه العواطف ، وان نرتب عليها النتائج اللازمة فى صراحة لا تحد منها المجاملات ، اننا نريد أن نكون « عصريين » والنصر عصر العلم ، والعلم هو معرفة الواقع والقوانين التى تحكمه ، ثم استخدام تلك المعرفة فيما يرفع من شأن الجماهير .